الدعوة المسيحيّة والدعوة اللبنانيّة

مقاربة لاهوتيّة في ضوء الأوضاع الراهنة

الأب صلاح أبو جوده اليسوعيّ(*)

مقدّمة

يُشير قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني في الإرشاد الرسوليّ «رجاء جديد للبنان»، إلى تجربتَين تتربّصان بالشبّان والشابّات اللبنانيّين، ولا سيّما المسيحيّين منهم، وهما «التشدّد والتراخي»[1]. وفي الواقع، تُترجم هاتان التجربتان سياسيًّا، في الجانب المسيحيّ، بمواقف ثلاثة: السلميّة المقرونة أحيانًا بالاستسلام والوصوليّة والخضوع للأمر الواقع؛ والمعارضة المتطرّفة، التي تُعتبر قوميّة وطنيّة متشدّدة؛ واللّامبالاة تجاه الحياة السياسيّة، التي تطبع الكثير من المسيحيّين، ويرافقها السأم والميل إلى الهجرة. وفي هذا السياق، نلاحظ أنّ هذه اللامبالاة تسود شريحة مهمّة من الشبّان والشابّات، الذين منهم مَن يلتزم، بحماسة لافتة، حركاتٍ رسوليّة وروحيّة صرف. إنّ قيام هؤلاء باختبارات روحيّة قويّة،

(*) باحث في معهد الدراسات الإسلاميّة والمسيحيّة (جامعة القدّيس يوسف، بيروت).

(١) «في ضمير الشعب اللبنانيّ، وداخل الكنيسة في لبنان، يجب أن يحتلّ الشبابُ محلًّا مرموقًا، ويكون حافز تجدّد وطنيّ وكنسيّ، وذلك بالمشاركة في مختلف بُنى الحياة الاجتماعيّة ومراكز القرار. ويجب مساعدتهم ليتغلّبوا على تجارب التشدّد والتراخي التي يمكن أن تتربّص بهم...» الإرشاد الرسوليّ، رجاءٌ جديد للبنان، منشورات اللجنة الأسقفيّة لوسائل الإعلام، جل الديب، لبنان، ١٩٩٧، رقم ٥١.

واكتشافهم وجه المسيح القائم من الموت، وقوّة الروح القدس الفاعل في الكنيسة، هي، من دون شكّ، في أساس اندفاعهم الروحيّ، الذي يمثّل رجاءً كبيرًا للكنيسة. ولكن يبدو لنا من الضروريّ أن يصبح هذا الاندفاع رجاءً كبيرًا للبنان أيضًا. ونُشير على الفور إلى أنّنا لا نقصد بدعوتنا هذه أن تتحوّل الحركات الرسوليّة والروحيّة إلى العمل الوطنيّ، بل أن يعي المؤمن الفرد واجباته في «حياة المدينة»، ويعتبرها جزءًا مهمًّا من التزامه الإيمانيّ.

سنحاول، باديءَ ذي بدء، أن نعرّف بالمواقف الثلاثة التي أشرنا إليها أعلاه، ومن ثمّ نسعى لنضع الخطوط الأساسيّة التي تميّز موقف المسيحيّ بصفته مواطنًا فاعلًا ومسؤولًا في المجتمع.

أ - المسيحيّون اللبنانيّون بين السلميّة والقوميّة الوطنيّة واللّامبالاة

١ - ما هي السلميّة؟

مرّ لبنان، منذ ١٩٧٥ حتّى ١٩٩٠، بسلسلة من الحروب والفوضى، تركت بلدًا معاقًا سياسيًّا وأمنيًّا، وخلّفت مجتمعًا ممزّقًا ومنهوكًا. فالإحصاءات تشير إلى أنّه سقط ما يقارب المائة والخمسين ألف ضحيّة، وأكثر من مائة ألف معاق، وسبعة عشر ألف مفقود، وآلاف المهجّرين والمهاجرين. وما يزيد تلك المأساة ألمًا هو فقدان العدوّ طوال فترة النزاع: مَن كان عدوّ المسيحيّين؟ فإبّان خمسة عشر عامًا، مات المسيحيّون في حروب مع الفلسطينيّين، وميليشيات محلّيّة من ألوان مختلفة، والجيش السوريّ، ولكن أيضًا بسبب حروب بين الميليشيات المسيحيّة نفسها، والحرب بين الجيش اللبنانيّ الموالي للعماد ميشال عون والقوّات اللبنانيّة. ولعلّ هذه كانت أقسى ما عانى منه المسيحيّون الذين قتلوا فيها بالمئات، وهُجّروا بالآلاف، ورأوا أبناءهم يقتلون ويقاتلون ويحوّلون قراهم ومدنهم خرابًا.

مَن يمكنه أن يلوم رجال السياسة المسيحيّين الذين اشتركوا في أعمال الطائف ووقّعوا على الاتّفاق؟ ومَن يلوم أصحاب القرار حينذاك الذين أمروا بدخول القوّات السوريّة المناطق التي كان العماد عون يسيطر عليها؟ ألم ينقذ كلّ ذلك ما تبقّى من مسيحيّين في لبنان؟ ألم يكن ذلك الشيء الوحيد الممكن عمليًّا لاستعادة السلام في لبنان، وعلى وجه خاصّ في المناطق المسيحيّة في المتن وكسروان؟ ولكن، في المقابل، ألم يكن ذلك التوق إلى السلام متطرّفًا، بعد سنوات الحرب الطوال؟ ألم تكن النتيجة أنّ لبنان أصبح تحت الوصاية السوريّة؟

منذ ١٩٩٠ إلى يومنا هذا، تتراوح اتّهامات المعارضين، في الواقع، أمثال التيّار الوطنيّ الحرّ، والقوّات اللبنانيّة، والدكتور ألبير مخيبر، وحزب الكتلة الوطنيّة، والرئيس أمين الجميّل، وحزب الوطنيّين الأحرار - بدرجات متفاوتة بالطبع - بين اتّهام المسؤولين الرسميّين بأنّهم أدوات في يد سورية، أو أنّهم مستنكفون ضميريًّا، أو أنّهم مشلولون سياسيًّا، أو مستسلمون للأمر الواقع.

وما تزال نطالعه في الجرائد يُظهر تلك المواقف المتعارضة. على سبيل المثال، قال الرئيس العماد لحّود في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٩٩: «لبنان أمام خيارين: إمّا أن يكون موحّد الموقف في الداخل ومع سورية، ويواجه معها مخطّطات العدوّ أيًّا كانت، وإمّا يعود إلى الفتنة الداخليّة والاقتتال، وقد تعلّمنا درس الماضي»[٢]. جاء الردّ الأوّل على هذا القول من قبل «الهيئة العامّة في التيّار الوطنيّ الحرّ»، التي عقدت اجتماعًا استثنائيًّا للبحث فيه، فقالت: «يستهجن التيّار الوطنيّ الحرّ التدرّج في الموقف الرسميّ من المطالبة بتنفيذ القرار ٤٢٥ إلى وحدة المسار والمصير، ومن ثمّ ربط الانسحاب من الجنوب بالانسحاب من الجولان، وصولًا إلى التهديد بالفتنة الداخليّة وعودة الفوضى، في حال لم يتمّ

(٢) النهار، ٣٠ تشرين الثاني ١٩٩٩، ص ٢.

الاتّفاق مع سورية... إنّ الشعب اللبنانيّ، في نظر الرئيس لحّود، غير قابل للحياة ضمن صيغة للعيش المشترك إلّا تحت الوصاية والهيمنة السوريّة... إنّ سورية ومَن معها تضمر افتعال الاضطرابات لتبرّر بقاء جيشها في لبنان بعد الانسحاب الإسرائيليّ»(٣).

كيف يمكننا أن نحلّل بموضوعيّة هذَين الموقفين المتعارضَين؟ لعلّ رأي اللّاهوتيّ الكبير de Montcheuil ينير جزءًا من الموضوع: «عندما تُنقِذُ مدينةٌ وجودَها عن طريق الجُبن أو بسبب إخلالها بعهودها par manque de parole، وما دام أنّه لم يتمّ فيها التأسّف على ذلك العمل واستنكاره، بل خصوصًا إذا صار تعظيمه، سيعيش المواطنون حينذاك في جوّ من الجبن أو الكذب. ففي أساس وجودهم، يكمن التأكيد القائل بأنّه يجب على المرء أن ينقذ حياته مهما كان الثمن. وبالتالي، يجد المواطنون أنفسهم في أوضاع لا تلائم أبدًا تكوينهم الأخلاقيّ الشخصيّ ولا تكوينهم الدينيّ»(٤).

هل نستطيع أن نتكلّم على نقص خطير في الواقعيّة الأخلاقيّة عند بعض السياسيّين المسيحيّين، يرافقه نقص في الواقعيّة الاجتماعيّة والسياسيّة؟ إنّ هذا النقص المزدوج، إذا صحّ، يجعل القياديّين، الذين أرادوا السلميّة، غير أمينين تجاه هدفهم الأساسيّ. ذلك بأنّه إذا كان قرارهم العام ١٩٩٠ قد أنقذ البلاد من انحلال داخليّ وموت مؤكّد، فعملهم السياسيّ يجعل الشعب يموت من قلّة الرجاء والشهامة والقيمة. وقد ورد في بيان صادر عن «مجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك في لبنان» ما يعبّر عن هذه الهواجس: «لكنّ الآباء... يساورهم القلق مثل الكثيرين من المواطنين، ونحن على عتبة حلول سياسة دوليّة في المنطقة، والوهن ينال من الكيان اللبنانيّ في مقوّماته الأساسيّة: سلامة الأرض

---

(٣) النهار، ١ كانون الأوّل ١٩٩٩، ص ٥.

(٤) (ترجمة بتصرّف) Henri de Montcheuil, *L'Eglise et le monde*, Paris 1945, p. 161.

وسيادة القرار والاستقلال الناجز، وفي وحدته الوطنيّة الهشّة، وفي ممارسته اليوميّة للسيادة، وفي عيشه المشترك الصادق والأصيل»[٥].

وماذا يصبح المصير إذا أضفنا إلى هنا تغليب المنفعة الشخصيّة على الواجب والخير العامّ، كما يظهر، على سبيل المثال، في المجادلات حول قانون الانتخاب والفضائح الماليّة؟ ألا يصبح الموت الناتج من الانحلال الداخليّ أكثر واقعيّة؟ إنّ خبرات المواطنين في السنوات السابقة، على الرغم من فسحة الأمل التي خلقتها نزاهة الرئيس العماد لحّود، تجعل شريحة كبيرة منهم تشكّ في استقامة السياسيّين، لا سيّما وأنّ عددًا غير قليل منهم لا يتوانى يبحث عن دعم خارجيّ ليصل إلى السلطة.

من المؤكّد أنّ السلام يتطلّب، في الوقت نفسه، الحرّيّة والسيادة والاستقامة الأخلاقيّة. فالسلام الذي لا يسمح بتطوّر العدالة وتفتّح الشخصيّة الوطنيّة ليس سلامًا حقيقيًّا.

لنسمع البابا يوحنّا بولس الثاني: «في السنين الماضية، انطبع لبنان بمحنة الحرب. واليوم تقتضي هذه الآلام بتطهير حقيقيّ للذاكرات والضمائر. ولذلك ينبغي تعزيز السلام الدائم المبنيّ بكلّ صبر وأناة. لأنّ السلام وحده بإمكانه أن يكون الينبوع الحقيقيّ للإنماء والعدالة... إنّني أحثّ اليوم، إذًا، جميع الكاثوليك وأدعو في الوقت عينه سائر المسيحيّين وأصحاب الإرادات الطيّبة، إلى القيام بأعمال نبويّة، وتقلّد سلاح السلام والعدالة. من الأمور الملحّة تطوير وتنمية تربية الضمائر على السلام والمصالحة والوفاق بين جميع عناصر الأمّة اللبنانيّة»[٦].

٢ - ما هي اللامبالاة؟

إنّ الأسباب التي تجعل شريحة كبيرة من المسيحيّين، وبوجه خاصّ

---

(٥) البيان الختاميّ الصادر عن مجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك في لبنان، في ٢١ تشرين الثاني ١٩٩٩، في: النهار، ٢٢ تشرين الثاني ١٩٩٩.

(٦) الإرشاد الرسوليّ، رقم ٩٧ و٩٨.

الشباب منهم، تعاني من اليأس، وتتّخذ موقفًا سلبيًّا تجاه الحياة الوطنيّة، كثيرة. وقد أتى الإرشاد الرسوليّ على ذكر عدد منها، واصفًا إيّاها بالصعوبات في وجه الوطن، وعوامل تؤدّي إلى نوع من «الهجرة النفسيّة». فهنالك صعوبات ذات طابع اقتصاديّ وعسكريّ وسياسيّ واجتماعيّ، إلخ[٧]. ولكن، في ما يتّصل بالمسيحيّين، فإنّ «ما اختبره المؤمنون بالمسيح في الماضي وفي الحاضر، في أنفسهم وفي الآخرين، في ما حولهم وفي كلّ مكان، كافٍ لإقناعهم بما لقوى الشرّ من قدرة لا تزال قائمة، في وسعها أن تنشر على الدوام الظلمة في العقول والقسوة في المشاعر، وتشكّل تهديدًا للمستقبل»[٨].

غير أنّ كلّ انعزال، وكلّ رفض للاشتراك في الحياة الوطنيّة، يؤثّران سلبًا في المجتمع، فالتوازن الداخليّ الدقيق يُصاب بخلل خطير، ويُخلَق جوٌّ مؤاتٍ لازدياد ممارسات العنف وقلّة العدالة. فرفض الانخراط في خدمة الحياة العامّة، يعني تجريد الوطن من سلاحه في وجه الظلم. وبالتالي، يصبح ذلك الموقف أشبه بمؤامرة على الوطن نفسه. لذا، أصاب البابا عندما ذكّر بأنّه يجب أن يعرف الجميع «أنّ لهم مساهمة متميّزة يقدّمونها إلى بلدهم»[٩].

وفي الواقع، يعود إلى المسيحيّين واجب بثّ القيَم الإنجيليّة، وفي طليعتها الجهاد من أجل تحقيق العدالة وتطويرها، بقوّة المغفرة والرحمة والمحبّة، في الحياة الوطنيّة. على أنّ ذلك ممكن إذا نظرنا إلى لبنان بصفته بلدًا له مكانه في قصد الله: «إنّ المؤمنين العلمانيّين يقومون هكذا بخدمة حقيقيّة للإنسان وللمجتمع الوطنيّ، وذلك بفضل معموديّتهم التي بها يشاوكون في وظيفة المسيح المثلّثة: الكهنوتيّة والنبويّة والملكيّة»[١٠].

---

(٧) راجع: الإرشاد الرسوليّ، رقم ١٧، وعنوانه «المسيحيّون في المجتمع المدنيّ».
(٨) المرجع نفسه.
(٩) المرجع نفسه، رقم ٩٥.
(١٠) المرجع نفسه، رقم ١١٣.

ففي العمق، نموّ الحسّ الوطنيّ السليم، والاندفاع إلى التزام الحياة الوطنيّة، لا ينبعان بزخم وعنفوان ورجاء إلّا انطلاقًا من الإيمان المسيحيّ، البعيد عن المصالح الفرديّة والفئويّة الضيّقة، والمنفتح على بنيان الإنسان في جميع أبعاده.

٣ - ما هي القوميّة الوطنيّة؟

لنؤكّد أوّلًا على أنّ حبّ الوطن واجب لا ينفصل عن الخير العامّ. قال البابا في دور العلمانيّين: «دعوتهم الخاصّة بهم هي أن يطلبوا ملكوت الله من خلال إدارة الشؤون الزمنيّة التي ينظّموها بحسب إرادة الله... إدارة الشؤون العامّة، وسياسة المجتمع، هما ذاك العلم المدنيّ الذي يمكّن الناس من التواصل بصلات الصداقة، مع الاهتمام بأن يبنوا معًا أسرة يوحّدها المصير والصالح العامّ، رائدها خير الأفراد وخدمة الحقيقة، لتجمل كلّ مواطن على حبّ وطنه»[١١].

لا شكّ في أنّ الشعار الذي طبع، على نحو خاصّ، الميليشيات المسيحيّة، طوال فترة الأحداث، كان «الدفاع عن الوطن». فحبّ لبنان والولاء له عُظّما تعظيمًا لم يعرفه الوطن من قبل. كما اتّخذ النضالُ من أجل الحفاظ على بقاء لبنان صاحبَ كيان مستقلّ، طابعَ قضيّة استحقّت بذل الذات في سبيلها بذلًا تامًّا. فالموت من أجل تلك القضيّة أُحيط بهالة من مجد الشهادة. وكلّ مَن عاش في لبنان وقت الحرب، رأى، ولا شكّ، المئات من صور الشبّان الذين قضوا ليحيا لبنان.

يجب ألّا تُنسى تضحيات أولئك المواطنين الشجعان، وألّا تُنكر. بيد أنّه من الواجب أن نميّز بين الشبّان الذين التزموا المعارك حبًّا للبنان، وبين المسؤولين، أو القادة، الذين أعمَوا الكثير من الناس بخطبهم المبالغة عن عظمة الوطن، وأخفوا الأسباب الحقيقيّة الكامنة وراء تتابع الحروب.

---

(١١) المرجع السابق، رقم ٤٥.

لسنا هنا بصدد محاكمة مَن يُسمّوا عادة «أمراء الحرب»، بل نتساءل عن حبّ الوطن: هل حبّ الوطن حبًّا متعصّبًا ينبع من الحبّ المسيحيّ؟ أو، بكلام آخر، كيف يستطيع المواطن أن يحبّ وطنه «مسيحيًّا»؟.

حبّ الوطن

إذا كان يترتّب على كلّ مواطن أن يحبّ وطنه ويعمل من أجل الخير العامّ فيه، خير جميع المواطنين، فعليه ألّا ينسى أنّ وطنه يقع بين أوطان أخرى. وهذه الحقيقة تضع المواطن تجاه خيار: إمّا أن يقبل أن ينشر خيره العامّ ليشمل البلدان الأخرى، وذلك يكون عن طريق التضامن معها، إمّا أن يرفض التضامن، جاعلًا من وطنه غاية الحياة السياسيّة الوحيدة، ومن خيره الخاصّ مقياس عمله الوحيد.

إنّ نظرة موضوعيّة إلى تاريخ لبنان الحديث، تُظهر لنا أنّ علاقة الوطن بمحيطه كانت مطبوعة بالحذر والشكوك والتوتّر. ولا شكّ في أنّ أسباب هذا الموقف تعود إلى واقع الأقلّيّات والتغيرات الدراميّة التي عاشها الشرق الأوسط، ولا يزال يعيشها. ولكن هل في ذلك سبب كافٍ حتّى لا ينفتح المسيحيّون اللبنانيّون على البلدان العربيّة؟ وفضلًا عن ذلك، مَن بوسعه أن يجزم أنّ حملات الدفاع عن البلاد في وجه هذه الميليشيا أو تلك الدولة لم تُطلَق بسهولة كبيرة؟ ومَن يستطيع أن يجزم جزمًا قاطعًا أنّ الحروب التي جرت، على اختلاف صيغها، لم تأت نتيجة مماثَلةٍ مُغرية بين رجل السياسة هذا، أو تلك المجموعة السياسيّة والاقتصاديّة، والوطن؟

تكتسب كلمات البابا يوحنّا بولس الثاني، في هذا المضمار، أهمّيّة بالغة: «إنّ مصيرًا واحدًا يربط المسيحيّين والمسلمين في لبنان وسائر البلدان المنطقة... بودّي أن أشدّد، بالنسبة إلى مسيحيّي لبنان، على ضرورة المحافظة على علاقاتهم التضامنيّة مع العالم العربيّ وتوطيدها... إنّ مسيحيّي الشرق الأوسط ومسلميه، وهم يعيشون في المنطقة نفسها، وقد عرفوا في تاريخهم أيّام عزّ وأيّام بؤس، مدعوّون إلى أن يبنوا معًا

مستقبل عيش مشترك وتعاون، يهدف إلى تطوير شعوبهم تطويرًا إنسانيًّا وأخلاقيًّا. . .»[١٢]. فلا بدّ أن يندرج حبّ الوطن في هذا الهدف، أي في إطار التضامن مع العالم العربيّ بغية بنيانه على المستويات كافّة.

وقُصارى القول هو أنّ هنالك تجاوزًا ضروريًّا لآفاق الوطن يجب أن يحصل، ومن الواجب الكلام عليه وفهمه، لا وكأنّه نفي للوطن، بل، على خلاف ذلك، على أنّه رسالة وطنيّة سامية. وفي الواقع، يتحوّل حبّ الوطن إلى تعصّب وطنيّ عندما نرفض مبدأ هذا التجاوز، ونفضّل الالتفاف على خير خاصّ يصبح سريعًا خيرًا أنانيًّا خطيرًا.

ومن جهة أخرى، هو الإيمان المسيحيّ عينه الذي يقتضي ذلك الانفتاح، لأنّ قصد الآب هو خلاص جميع الناس. والخطر الكبير هو أن يماثل المسيحيّ الوطنيّ بين بلده وإيمانه، ويقتنع في فكره أنّ دمار أحد الأمرين يؤدّي إلى زوال الآخر. فإنّ مثل هذا الموقف يكشف عن إيمان لا يزال في مرحلة الطفولة، لأنّه لم يدرك بعد منزلة الرسالة في الانتماء إلى جسد المسيح. لا يمكن المحبّة المسيحيّة أن تُحصر ضمن حدود سياسيّة وجغرافيّة.

ولكن يبقى أنّ الخير العامّ، لكي ينتشر في البلدان الأخرى، يجب أن يُحقّق أوّلًا في لبنان. فلا بدّ من السعي لتوثيق الرباط الاجتماعيّ الوطنيّ على أسس سليمة، تحفظ هويّة البلاد واستقلالها وحقوق الطبقات الفقيرة، مع التنبّه دومًا إلى أنّ النوايا الحسنة لا تتوقّف عند ذلك الحدّ، بل يرفع أصحابها أنظارهم نحو البلدان الأخرى.

٤ - خلاصة: الموقف المسيحيّ

تلتقي السلميّة والقوميّة الوطنيّة، في الواقع، حول النتيجة نفسها. فمن جهة، يعجز صاحب الموقف السلميّ عن تحقيق خير بلاده العامّ، بل

(١٢) المرجع السابق، رقم ٩٣.

يجد نفسه منجرفًا في نهج يُضعف الوطن ويفرغه من معاني الاستقلال والسيادة والحرّيّة، وهي أمور في صلب الخير العامّ. ومن جهة أخرى، لا يمكن القوميّ الوطنيّ أن يبحث عن مجد بلاده فقط من دون أن يصل إلى أن ينفي خير الآخرين. فحبّ الوطن، على نحوٍ متعصّب، يعني، بكلام آخر، أن تكون البلدان المحيطة ضعيفة وفقيرة وغير قادرة. أمّا إخفاق السلميّة والقوميّة الوطنيّة، فلا يؤول إلّا إلى خلق أمّة واحنة وشعب لا مبالٍ.

فلا بدّ من تحاشي موقف متطرّف، من جانب أنصار «السلميّة»، ومن جانب أنصار القوميّة الوطنيّة على السواء. فهذا الموقف يؤدّي إلى نتيجة عكسيّة في كلتا الحالتين. وفي الواقع، يتطلّب الموقف المسيحيّ المثاليّ، الذي لا يتخلّى عن حبّ السلام، ولا عن حبّ الوطن، أن يجمع ما بين الطرفَين عن طريق جدليّة غير سهلة ولكن ممكنة.

إذا كان تطوّر العدالة والديموقراطيّة والحرّيّة في النظام المحلّيّ، والانفتاح على الحياة الوطنيّة، وعلى جميع مكوّنات المجتمع اللبنانيّ، يجب أن يكونا في صلب اهتمامات المسيحيّين اللبنانيّين، فيجب أن تكون اهتماماتهم تلك شاملة العالم العربيّ أيضًا. فالدعوة المسيحيّة، التي ترمي إلى إقامة أخوّة شاملة تقوم على احترام الاختلاف والتسامح والمحبّة، هي في صميم الإيمان.

ب – «المسيح رجاؤنا: بروحه نتجدّد، ومعًا للمحبّة نشهد»

إنّ هذه الكلمات، التي ألّفت موضوع السينودُس، تُلخّص بوضوح تلك الشروط الأساسيّة لبنيان «رجاء جديد للبنان». يتأسّس هذا الرجاء على المسيح الذي يبثّ محبّته وسلامه في قلوب المؤمنين بالروح القدس. ولكن لكي نكتسب هذا السلام وتلك المحبّة لأنفسنا وللآخرين، يترتّب علينا أن نتوب. تبدأ طريق الخلاص بالتوبة، فهذه كانت صرخة الأنبياء طوال التاريخ، وكانت دعوة المسيح عندما باشر رسالته في الجليل. قال

قداسة البابا: «عندما دعوت، في ١٢ حزيران ١٩٩١، سينودُس الأساقفة إلى جمعيّة خاصّة من أجل لبنان، كان وضع البلاد مأسويًّا، ولبنان مزعزعًا تمامًا في كلّ مقوّماته. فدعوت الكاثوليك المقيمين على هذه الأرض إلى المباشرة بمسيرة صلاة وتوبة وارتداد تتيح لهم أن يتساءلوا أمام الربّ عن أمانتهم للإنجيل وعن التزامهم الفعليّ في اتّباع المسيح»[١٣].

وفي الحقيقة، تفتح هذه المتطلّبات الإنجيليّة المسيحيّين على العالم أجمع، بدءًا بخاصّتهم، لكي يجعلوا من الإنسانيّة كلّها أخوّة واحدة، جسدًا واحدًا رأسه المسيح. بالطبع، لا تزال هذه الأخوّة الإنسانيّة موضع رجائنا، فهي تندرج في الوعود الأخيريّة. غير أنّ حضورها في أذهاننا وقلوبنا ينبّهنا دومًا إلى أنّ وجودنا في العالم له هدف محدّد علينا أن نسعى لبلوغه.

بصفتي مسيحيًّا، أؤمن بأنّ لوطني دعوة عليه أن يتمّمها في صميم البشريّة الممزّقة بسبب الخطيئة. أليس المسيحيّون هم الشعب الجديد المختار ليترجم هذه الدعوة؟ وما الذي يحصل إذا قصّر المسيحيّون تجاه تلك الدعوة الإلهيّة بسبب قلّة الأمانة؟ بالطبع، تراهم يعيدون خطيئة أولئك الذين رفضوا المسيح، فيصبحون هم أنفسهم مصدر انقسام وعداوة.

وفي الواقع، إنّ المسيحيّ مدعوّ إلى أن يبرهن عن مصداقيّة إيمانه عن طريق ممارسة المحبّة التي هي وحدها تكمّل العدالة وتسمو بها. فالإخلاص للمحبّة لا ينفي العدالة. وهذه القناعة وحدها تجعل من الولاء للوطن في أطر سليمة بعيدة عن مخاطر العلميّة والقوميّة الوطنيّة.

١ - دخول ديناميّة الخير العامّ

«وهكذا يصبح المؤمنون بالمسيح في لبنان، وقد جدّدهم الله، شهود محبّته لدى جميع إخوتهم»[١٤]. تُظهر هذه الكلمات، التي تأتي في مقدّمة

---

(١٣) المرجع السابق، رقم ٢.
(١٤) المرجع نفسه، رقم ١.

الإرشاد، أنّ عمل كلّ مسيحيّ وجميع المسيحيّين، لا يمكن أن يكون فرديًّا، أي لا يقتصر على الشخص ولا على الطائفة ولا على الوطن. وهو الروح القدس الذي يبدّد مخاوفنا، ويجعلنا نفطن إلى حقيقة رسالتنا شعبًا وأفرادًا، وهي رسالة شاملة تهدف إلى إعلان المسيح «إلى الخلق أجمعين» (مر ١٦/١٥).

...

إن كنّا أوفياء لهذا المثال الأعلى، تحاشينا أن يدخل حبّنا لبنان في نزاع مع ديناميّة الخير العامّ، التي تميل، بطبيعتها، إلى الشموليّة. بالطبع، لا يمكن ذلك الموقف إلّا أن يكون ثمرة تجدّد لحياة المسيحيّين اللبنانيّين المدنيّة والكنسيّة معًا. والإرشاد يشدّد على هذه الحقيقة في الفصل الثالث: «تثبيتًا للإيمان والرجاء والمحبّة لدى المؤمنين، وإذكاءً لحميّتهم الرسوليّة، لا بدّ من النظر إلى هذه «الأمور الآتية»، لأنّه، تبعًا لمعنى التاريخ الذي في المسيح بدايتُه ونهايتُه، والسعادة التي يدعونا إليها، يُطلب من الكاثوليك اللبنانيّين، أن يتوبوا ويبدّلوا سيرتهم بدافع من الروح القدس؛ وهكذا يظهر، شيئًا فشيئًا، عالم جديد في هذه الأرض، بمعونة الروح القدس الذي ينفحنا بالحياة الجديدة الصادرة عن الله»[١٥].

أمّا في ما يتّصل بينابيع هذا التجدّد المطلوب، فالبابا، في الفصل نفسه، يتكلّم على ضرورة أن نتغذّى بكلمة الله الحيّة (رقم ٣٩)، والأمانة للتقليد الذي يسمح بعودة حقيقيّة إلى الجذور (رقم ٤٠-٤١)، والمثابرة على المشاركة في الليترجيّا والصلاة الشخصيّة والجماعيّة (رقم ٤٢-٤٣). هذه هي، إذًا، الينابيع التي تسمح بتجدّد الأشخاص[١٦]، وتجديد بُنى المشاركة، والتجدّد الرعويّ[١٧].

---

(١٥) المرجع السابق، رقم ٣٨.

(١٦) يشمل تجدّد الأشخاص: المؤمنين العلمانيّين، والأسرة، والنساء، والشباب، والرهبان والراهبات، والخِدَم الكهنوتيّة. أنظر: المرجع نفسه، أرقام ٤٤-٦٣.

(١٧) بعنوان «تجديد بُنى الشراكة»، يتكلّم البابا على الرعايا، والأبرشيّات، والبطريركيّات. أنظر: المرجع نفسه، أرقام ٦٤-٧٠. أمّا في شأن التجدّد=

٢ - الكنيسة وديناميّة الخير العامّ

في هذه المرحلة من تفكيرنا، يبرز دور الكنيسة ومسؤوليّتها في توجيه الطوائف المسيحيّة نحو الخير العامّ الوطنيّ والإقليميّ على السواء. ونذكّر هنا بأنّ التقدّم نحو الخير العامّ يتوقّف على نجاح الوساطة «المعموديّة» بين الإنسان والله، أي المشاركة communion بين الناس والله.

غير أنّ هذه الوساطة تحصل في الكنيسة. فجميع العناصر التي تؤلّف حقيقة الكنيسة الاجتماعيّة والعقائديّة والأخلاقيّة والقانونيّة والعباديّة والأسراريّة، ليس لها إلّا وظيفة واحدة، هي تجسيد تلك العلاقة بالله في ما بين البشر، وبالتالي، تضع الجميع على طريق السموّ المتواصل(١٨).

نختم كلامنا في هذا القسم بملاحظتين:

+ يفترض التقدّم نحو الخير العامّ الوطنيّ والإقليميّ أن تكشف الكنيسة عن أنّ عمل الله فيها هو رباط مشاركة بين الإنسان والله. فهذه الشهادة تُبرز وجه الله الحقيقيّ أبًا يسعى ليكمّل أبناءه البشر بواسطة محبّته. لذا، فالتفكير في الخير العامّ، انطلاقًا من البنوّة الإلهيّة، يُضفي على الخصوصيّة معناها الحقيقيّ، وهو انفتاحها على الشموليّة. وبالتالي، يصبح انغلاق الأشخاص والطوائف مناهضًا للشركة الإلهيّة.

+ لا شكّ في أنّ المثل المسيحيّ الأعلى هو ذو طابع أخيريّ

=الرعويّ، فهو يشمل: التعليم المسيحيّ، ومعاهد التعليم العالي، وكلّيّة اللّاهوت الكنسيّة، ورعاية الدعوات. أنظر: المرجع نفسه، أرقام ٧١-٧٨.

(١٨) «... يعلّم السينودس المقدّس، وهو يُعلنُ ما للإنسان من دعوةٍ غايةٍ في السموّ ويُثبت أنّ زرعًا إلهيًّا قد أُلقي فيه، يقدّم من الجنس البشريّ بما للكنيسة من إسهامٍ صادقٍ في إنشاء أخوّة شاملة تحقّق وهذه الدعوة. ما من مطمع أرضيّ يحرّك الكنيسة، ولكنّ شيئًا واحدًا تهدف إليه: أن تواصل، بدافع من الروح القدس المعزّي، عملَ المسيح نفسه الذي أتى إلى العالم ليشهد للحقّ، ليُخلّصَ لا ليدين، ليَخدم لا ليُخدَم»، المجمع الفاتيكانيّ الثاني، «دستور في الكنيسة في عالم اليوم»، رقم ٣، طبعة المكتبة البولسيّة، ١٩٩٢.

eschatologique. ولكنّ الكنيسة مدعوّة إلى أن تسعى في المكان والزمان لتسمو في وحدة أعضائها بعضهم مع بعض ومع المسيح، رأسِ الجسد، لتشهد على أنّ أخوّة البشر ممكنة منذ الآن، في هذه الحياة. جاء في الإرشاد: «لقد استطاع آباء المجمع، انطلاقًا من أداة العمل، وفي حوارهم مع المستمعين العلمانيّين والكهنة، أن يحيطوا بما للشرّ العميق الذي يعاني منه المؤمنون في لبنان من أسباب رئيسيّة، ألا وهي غياب مفهوم الكنيسة بوصفها سرّ شراكة يعبّر عن طبيعة الكنيسة الأسراريّة ووحدة المؤمنين في جسد واحد»[١٩].

إنّ قدرة الكنيسة على أن تعبّر عمليًّا، في حضنها، عن حقيقة الدعوة إلى إقامة أخوّة بشريّة شاملة، تقرّر مصير روابط الأخوّة التي يجب أن تقيمها مع مسيحيّي الشرق عمومًا (الإرشاد، رقم ٨٢)، والكنيسة الكاثوليكيّة كلّها (المرجع نفسه، رقم ٨٤)، والكنائس الأرثوذكسيّة (المرجع نفسه، رقم ٨٥-٨٦)، والكنائس البروتستانتيّة (المرجع نفسه، رقم ٨٧). وبالتالي، مع باقي الأديان والعالم العربيّ (المرجع نفسه، أرقام ٨٩-٩٣).

لا بدّ من أن يتجاوز الإيمان، في حياة كلّ مؤمن، وفي حياة الكنيسة كلّها، الفرديّة التاريخيّة individualité historique الموروثة، والخوف من المستقبل. وهذا التجاوز يحصل عندما تفكّر الكنيسة والمؤمنون في أوضاعهم الراهنة، لا انطلاقًا من القوميّة الوطنيّة، ولا السلميّة، بل انطلاقًا من يسوع المسيح الذي هو هو «أمس واليوم وغدًا». فهكذا تستطيع أن تكون الكنيسة مثل جسر يربط بين جسد المسيح السرّيّ المتسامي والأخوّة التي يترتّب على المسيحيّين أن يسعوا إلى تحقيقها، سالكين تبعًا لتعاليم الإنجيل الحيّ.

---

(١٩) الإرشاد الرسوليّ، رقم ٨٠.